البحث رقم
9

المفردة القرآنية بين الثبات والتعدد

الأستاذ المساعد الدكتور
علي مطر جرو
تدريسي في كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية

الأستاذ المساعد الدكتور
وسام نجم عبد الله المحمدي
تدريسي في كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية

المقدمة

الحمد لله الذي شرف لغة الضاد بان جعلها لغة أقدس كتبه وأشرفها إذ قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف: ٢] وأعلى مكانتها بأن جعلها أفضل أنبيائه ورسله، إذ قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقد جاء القرآن ممثلا لأعلى صور الفصاحة وابلغ معاني القول فاعجز الخلق قاطبة فوقفوا مبهورين أمام سحر بيانه فلم يستطيعوا أن يجاروا أسلوبه ولم يتمكنوا من أن يأتوا ولو بسورة واحدة.

ومنذ نزول القرآن العظيم شمر الناس لاسيما المؤمنون من ساعد الجد فقدحت العقول من زناد المعرفة ولملمت الأفكار شتاتها كي تقف على مضامين هذا النص الذي يخفي وراء كل لفظة من ألفاظه وكل تركيب من تراكيبه معان لا يحدها عقل لذا غربت العقول وشرقت في إيضاح النص القرآني.

وقد جاء هذا البحث محاولة للكشف عن المعاني الدقيقة والمتنوعة والمتعددة للمفردة القرآنية فوجدها زاخرة بالمعاني متناسبة ومتناسقة مع سياق الكلام، إذ وجدنا أن النص القرآني يستعمل مفرادته لتدل على معنى ثابت ويكون هذا المعنى هو السائد في معظم سياقات النص بينما وجدنا بعضا من المفردات اتخذت منحى آخر إذ جاءت لتدل على معنيين متغايرين أثبتت في النصوص القرآنية، بينما وجدنا بعضا آخر من مفردات النص القرآني ذات دلالات متعددة ومتنوعة ولذا جاء هذا البحث للكشف عن هذه الظاهرة في استعمال النص القرآني لمفرداته.

وقد جاء هذا البحث مقسما على مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث، ذكرنا في المبحث الأول المفردة القرآنية ذات الدلالة الثابتة، وذكرنا في المبحث الثاني المفردة القرآنية ذات المعنى الثنائي، وذكرنا في المبحث الثالث المفردة القرآنية متعددة الدلالة ثم خاتمة ذكرنا فيها أهم ما تلخص من نتائج البحث ثم قائمة بأسماء المصادر والمراجع.

كما أننا إذ ذكرنا دلالة المفردة القرآنية لم نغفل ما أضافته المفردة القرآنية في النصوص القرآنية الواردة في البحث من دلالة تعبيرية ذات مغزى في بيان الإعجاز البياني الذي هو سمة النص القرآني.

وختاما نرجو من الباري عز وجل أن يتقبل منا هذا العمل وان يجعله في ميزان حسناتنا يوم أن نلقاه ولا ندعي أننا احتوينا كل ما جاء في دلالة المفردة القرآنية، إذ لا حصر لدلالتها كونها تتسم بالإعجاز ولا حصر لإعجازه كونه يدرك بالذوق كما قال السكاكي[١]: (اعلم أن إعجاز القرآن يدرك ولا يمكن وصفه)، ولأنه لا منتهى لوجوه إعجازه كما قال السيوطي: (وأنهى بعضهم وجوه إعجازه إلى ثمانين والصواب لا نهاية لوجوه إعجازه)[٢]، ولكن حسبنا أنا بحثنا وكتبنا ما توصلت إليه أذهاننا التي إن كانت صوابا فهي من الله وان كانت خطأ فهي منا ومن الشيطان ونسأل الله تعالى أن ينفع به كل من يقرأه.

الباحثان

Abstract

The preset paper represents an attempts to explore the various and minute meanings of the Quranic word. This word is rich with suitable and harmonious meanings within context. The Quranic context uses its words to refer to a fixed meaning which is the most predominant in almost all contexts. On the other hand, some words are hyponymous provided by the Quranic context, while other words are polysemyous.

The paper is divided into an introduction, preface and three sections. The first section deals with the Quranic word with fixed meaning, while the second covers hyponymy. The third section focuses on polysemy in the Holy Quran and the conclusion sums up the outcomes of the paper followed by a bibliography.

A reference has been made to the expressive meaning that is significant to reflect miraculous rhetoric characteristic of the Quranic text.

(١) الإتقان: ١٢/٢.

(٢) معترك الأقران: ٣/١.

التمهيد

امتازت اللغة العربية بمرونتها وطواعيتها فهي أي – اللغة – تتأتى لمن يعرف سبلها ويتدبر دلالاتها، فلم تكن يوما ما عصية على طالبها أو من رام توظيف ألفاظها لخدمة مراميه سواء أكان ذلك في الشعر أم النثر. إلا أن المفردة مجردة لا قيمة لها من دون السياق الذي تنضوي فيه ولا تتضح دلالتها ما لم تتجاذب العناق ومفردات النسق فيرى عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) أن (لا ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف وقبل أن تصير إلى الصورة التي تكون بها الكلمة إخبارا أو أمرا أو نهيا أو استخبارا أو تعجبا ، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة وبناء لفظة على لفظة)[١].

وتأكيدا لكلام الجرجاني، نجد لفظة «رجل» مثلا: (تدل على العموم، لأنها لا تخص واحدا بعينه فإذا دخلت في تركيب مع «ال» التعريف اتجه معناها إلى الخصوص، ولو زيد في التركيب فقيل «الرجل الشجاع» لزادت الكلمة تخصيصا)[٢].

وإذا قلت «كتاب» فيدل ذلك على العموم المطلق؛ لان التنكير يفيد العموم ولكن إذا قلت «الكتاب» تبدأ تتقرب من التخصيص ولكن يبقي المراد منه مبهما إلا إذا دخل ضمن السياق، كأن تقول «هذا الكتاب مفيد» و«هذا كتاب بلاغة»، فتجد أن الكتاب اكتسب دلالة واضحة. وكذلك لفظة «جيّد» يمكنها أن تعني «قاطع» حينما نستعمل مع «سكين»، و«مريح» حينما نستعمل مع «كرسي»، و«ماهر» حينما تستعمل مع «عازف كمان» وهكذا...)[٣].

إذن يمكننا القول إنّ اللفظة تتحد دلالتها في السياق الذي تنتظم فيه وقد أوضح عبد القاهر الجرجاني ذلك حينما قال: (إنّ الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم

(١) دلائل الإعجاز: ٤٤.
(٢) المجاز في العربية: ٢٢٠.
(٣) التوليد الدلالي في البلاغة والمعجم: محمد غاليم: ٨٢.

توضع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ولكن، لأن يضم بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها من فوائد)[١].

المبحث الأول:

ثبات المعنى

من ينعم النظر في كتاب الله العزيز يجد كمّا هائلا من الألفاظ سواء أكانت في الصفات الإلهية أم في أركان الإسلام تتسم بثبات المعنى ملتزمة سياقات محددة لدلالتها على الرغم من اختلاف القصة أو الخطاب أو السورة أو المكان أو الزمان إلا أنّها تلتزم معنى واحدا. فلو قرانا قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[٢].

نجد أن لفظة «الصلاة» التي تعني الدعاء قد اتخذت معنى ثابتا أو سياقا محدودا، فهي عندما تأتي مقترنة بلفظ الإقامة وأيتاء الزكاة، تعني الوسيلة المباشرة لاتصال العبد بربه من دون وساطة. ولعل السياق الذي انتظمت فيه هذه اللفظة مما يوحي تماما بالمقصود منها ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ هي من متممات الإسلام ومن أركانه، فجاءت عبارة ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ بمعنى اسجدوا مع الساجدين من باب الإطناب بذكر الخاص بعد العام لان الركوع والسجود من مفردات الصلاة ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[٣]، تجد أنّ الصلاة عندما اقترنت بلفظ الزكاة دلت على المعنى المقصود وحددت دلالتها الثابتة، وفي الآية تقرير مسألة طلب من المسلمين ترك قتال المشركين وهم بمكة وحثهم على الاتصال بربهم ودعوتهم أياه، لذا ورد الخطاب بصيغة الأمر ﴿وَأَقِيمُواْ﴾ لأنّ قتال المشركين لم يحن فالصلاة هي أولى لهم من قتالهم.

---

(١) دلائل الإعجاز: ٤١٥، ينظر: مفتاح العلوم: ٦٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ٤٣.

(٣) سورة النساء: الآية ٧٧.

والملاحظ أن الصلاة في النسق القرآني لا تأتي إلا بصيغة الأمر «أقم» و﴿وَأَقِيمُواْ﴾ من فروض الإسلام التي لا يجب التهاون بها من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(١) فنجد الدعوة إلى الصلاة قد جاءت بعد ان أمروا بالتسليم لرب العالمين من التسليم والتفويض له، فهي السبيل الوحيد لاتصال العبد بربه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢). فنجد القرينة على إقامة الصلاة وتحديد دلالتها الثابتة قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ فكانت هذه العبارة تتمة لقوله «أَن تَبَوَّءَا» لقومكما بيوتا بمصر " لان البيوت تكون للراحة والاستحمام، ألا أنّ التحقق جاء بقوله «قبلة» أي اتخاذها بيوتا للعبادة أو مصلى، ولم يقل اتخذوا المساجد أماكن للعبادة – في ذلك- احتراس من أن يكشف أمرهم لفرعون وقومه، لأنّهم إن علموا بأمرهم نكّلوا بهم، لذا قال (اتخذوا بيوتكم مكانا للعبادة لقول ابن عباس: " كانوا خائفين فأمروا أن يصلّوا في بيوتهم)(٣).

فالملاحظ أن كلمة الصلاة في الآيات السابقة وما يليها قد اتخذت سياقا محدودا وألفاظا بعينها.

ولو تأملنا قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾(٤). فنجد في الآية دعوة صريحة للمسلمين بضرورة التوجه إلى الله في كل أمورهم وهذا لا تأتي إلا بالصبر وقد اقرنها بالصلاة لان الصلاة ثقيلة على المتكاسلين، ولكنها خفيفة ومريحة للخاشعين المتقين.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٧٢.
(٢) سورة يونس: الآية ٨٧.
(٣) تفسير الطبري: ١١/١٥٤.
(٤) سورة البقرة: الآية ٤٥.

فجاءت لفظة «خاشعين» لتأكيد المعنى الثابت للصلاة واحتراسا لدفع توهم من أنّ الصلاة ثقيلة على من يؤديها فجاء قوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ لدفع هذا التوهم واستخدام القصر بـــ«إلا» لقصر الخشوع والطمأنينة في الصلاة على الخاشعين العابدين فقط ممّا تقدم تبين أن اللفظة محكومة بسياقها ولا تتضح دلالتها بعيدا عن النسق الذي تنتظم فيه فتكتسب قيمتها المعنوية من حسن نظمها (وملائمة معناها لمعاني جارتها من الألفاظ وفضل مؤانستها لأخواتها)[١].

ومن ذلك لفظة «ٱلصِّيَامُ» التي تعني في اللغة: الإمساك عن الشيء، قال أبو عبيدة: ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم وفي الشرع الإمساك عن الطعام والشراب والجماع في النهار[٢].

وهذا المدلول ثابت في التراكيب القرآنية ،فالمتأمل لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٣]، نجد أنّ الله تعالى قد فرض الصيام وجاء بصيغة المبني للمجهول «كُتِبَ»، ليشير إلى أنّ هذا الفرض قائم ما دامت السموات والأرض، وهناك قرائن تشير إلى المقصود من الصوم هو تحديد الزمان في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾[٤]. جعله في أيام معدودات في قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[٥]، فجاءت لفظة «مَّعْدُودَٰتٍ» جمعا مؤنثا للإشارة إلى محدودية أيام الصيام – كي لا يظن الصائم من أن الصيام يشمل الدهر كله، ففي هذه الآية تحديد لمن يتوجب عليه الصيام وكل ذلك يعد قرائن سهمت في تحديد لفظة «ٱلصِّيَامُ» وساعدت في إيضاح هذه المفردة.

(١) دلائل الإعجاز: ٤٤.
(٢) لسان العرب مادة «صام».
(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٣.
(٤) سورة البقرة: الآية ١٨٥.
(٥) سورة البقرة: الآية ١٨٤.

كذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾(١)، فنرى مدلول لفظة «ٱلصِّيَامُ» واضحا وهو الامتناع عن الطعام والشراب وسائر المفطرات الخطاب موجه إلى من قتل مؤمنا عن طريق الخطأ، إذ حدد الباري حكمه بتحرير رقبة مؤمنة أو دفع ديّة مسلمة إلى أهل المقتول وان لم يجد فعليه صيام شهرين متتابعين، والمراد بالصيام المدلول ذاته المحدد الثابت دلالته.

وممّا جاء في دلالة الصيام على المقصود الشرعي أيضا قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ﴾(٢) فقد حدد الباري عز وجل في هذه الآية ضوابط الكفارة التي جاء الصيام بدلالته الثابتة تكفيرا للحانث إن لم يستطع فعل واحدا من المخيرات الثلاثة التي ذكرت في الآية الكريمة أولا قال أبو حيان: (أنّ الحانث مخير بين الإطعام والكسوة والعتق)(٣) وان تصور أحد أنَّ المقصود بالصيام هو الامتناع عن الكلام وذلك لأنه تكلم بحق الله كاذبا فان القرائن تشير إلى المدلول الثابت يقول السكاكي (ت ٦٢٦هـ): (إن الغرض الأصلي من وضع الكلم هو التركيب ،لامتناع وضعها إلا لفائدة وامتناع الفائدة فيها غير مركبة)(٤)، فضلا عن فعل النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة من بعده والتي تعد تفسيرا للمقصود من الصيام في الآية الكريمة.

وقد جاءت لفظة «صَوۡمٗا» في موضع واحد تدل عن الامتناع عن الكلام أو الصمت وذلك في قوله تعالى: ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾(٥) ومما لاشك فيه أنَّ لفظة «صَوۡمٗا» هنا

---

(١) سورة النساء: الآية ٩٢.

(٢) سورة المائدة: الآية ٨٩.

(٣) البحر المحيط: ١١/٤.

(٤) مفتاح العلوم: ٦٧.

(٥) سورة مريم: الآية ٢٦.

جاءت تحت منحى مغايرا للمألوف إذ جاء النص القرآني بقرائن وهي «فَكُلِي وَٱشۡرَبِي» التي تشير إلى عدم الامتناع عن الأكل والشرب وقوله تعالى ﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ عقب قوله تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا﴾ كل ذلك يشير إلى أن «صَوۡمٗا» – ههنا- بمعنى الامتناع عن الكلام لا عن الأكل والشرب وكأنَّ هذا المعنى الأخير أصبح هو الحقيقة الثابتة له ولا يمكن أن يراد غيره إلا بقرائن فنرى كيف أسهم السياق في منح هذه اللفظة معنى مغايرا وأكسبها دلالة أخرى، وذكر السيوطي الحكمة من أمر الله تعالى مريم -عليها السلام- بالصمت فقال: (إنما أمرت بالصمت صيانة لها عن الكلام مع المتهمين لها، لان عيسى -عليه السلام- تكلم عنها واخبرها بأنها نذرت الصمت، ولا يجوز في شريعتنا نذر الصمت)(١)، فأمرها الله تعالى بالصمت في أشدِّ المواقف التي تحتاج الكلام فيها للدفاع عن نفسها لأنّه تعالى أراد أن يدافع عنها بنفسه عن طريق معجزة كلام ابنها عيسى عليه السلام.

ومن ذلك أيضا لفظتي «ٱلظُّلُمَٰتِ» و«ٱلنُّورِ»، فقد استعملها النص القرآني بمعنى الكفر والأيمان ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾(٢) فنرى السياق القرآني قد أبان بوضوح عن دلالة المفردتين – فقد اقرن النور بالمؤمنين والظلمات بالكافرين وقد أضاف النص القرآني إلى ذلك المعنى معنا آخر ليزيد النص حفاوة وجمالا ففي سياق المؤمنين قال تعالى ﴿يُخۡرِجُهُم﴾ إذ أعاد الضمير على نفسه تعالى ليزيدهم إكراما وحفاوة إذ إن الله تعالى هو الذي يتولى بنفسه إخراج المؤمنين من الظلمات إلى النور من غير زجر وتهديد وإنما برفق ولين، وأما في سياق الكافرين فلم ينسب الباري الإخراج لنفسه لينزه نفسه تعالى عن ذلك وإنما نسبه إلى الطاغوت فلم ينسب الله تعالى الشر إلى نفسه بل إلى غيره ﴿يُخۡرِجُونَهُم﴾

(١) معترك الأقران: ٥٧٨/٢.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٧.

وكأن هناك وعيدا وشتما وإهانة في إخراجهم من موضع لا يستحقونه «ٱلنُّورِ» إلى مكان هم أحق به «ٱلظُّلُمَٰتِ» والله اعلم.

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾(١) فقد شبه الكفر بالعمى أو بالظلام ، لان الذي لا يهتدي إلى نور الله فهو كالأعمى، أما من أنار قلبه للأيمان فهو المبصر الذي يرى كل شيء فشبه الأيمان بالنور.

وهذه الدلالة ثابتة في معظم آيات الكتاب الحكيم، إلا أنها في موضع واحد جاءت بمعنى الليل والنهار وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾(٢) فنرى الحديث في آية الأنعام منصب على توحيده وضرورة حمده على صنعه، فهو الأولى بالعبادة، خالق كل شيء من سموات وارض وليل ونهار، إذ جعل الأخيرين بشكل متعاقب ليكونا آية للناس على عظيم صنعه، وجاءت لفظة «ٱلظُّلُمَٰتِ» بصيغة الجمع، لأن الضلال متعدد ومسائله متنوعة، وافرد «وَٱلنُّورَ»، لأن مصدره واحد هو الرحمن منوّر الأكوان(٣).

وتأمل قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ﴾(٤) فقد جاءت لفظة السجود في النص القرآني لتدل على وضع الجبهة على الأرض يقول السيوطي في تفسير سجود الملائكة: (إن سجود الملائكة لآدم كان بوضع جباههم على الأرض وأول من سجد إسرافيل ولذا أجازه الله بولاية اللوح المحفوظ)(٥).

ويعلق السيوطي في موضع آخر من كتابه وذلك من خلال عرض آراء العلماء في مسألة «السجود» فمما قالوا: (لو وقف على «كلهم» لصحت للاستثناء، وصلحت على معنى المبالغة مع أن يكون البعض لم يسجد وهذا كما يقول القائل، كل الناس

(١) سورة الرعد: الآية ١٦.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١.

(٣) الصابوني: ٣٢٢/١.

(٤) سورة ص: الآية ٧٣

(٥) معترك الأقران: ١٨٣/٣

يعرف هذا – وهذا يزيد لأن المذكور أمر مشتهر ، فلما قال «أجمعون» رفع الاحتمال بأن بعضهم لم يسجد واقتضى الكلام أن جميعهم سجد)[١].

وقال المبرد: (لو وقف على «كلهم» لاحتمل أن يكون سجودهم في مواطن كثيرة فلما قال: «أَجۡمَعُونَ» دل على أنهم سجدوا في موطن واحد)[٢].

واعترض ابن عطية على قول المبرد (لأنه جعل «أَجۡمَعُونَ» حالا بمعنى مجتمعين يلزمه على هذا أن يكون أجمعين، هذا على أن يقرب من التنكير، إذ هو معرفة لكونه يلزم اتباع المعارف)[٣].

وقوله تعالى: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَـٰبِدُونَ ٱلۡحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ﴾[٤] فأراد بالساجدين المصلين الذين يضعون جباههم على الأرض وقدم الراكعين على الساجدين، لان الركوع يسبق السجود في الصلاة فالانحناء يسبق وضع الجبهة على الأرض وقد جاءت لفظة «للسجود» مقترنة مع لفظة «الركوع» في كثير من المواطن لتدل بهذا الاقتران على المعنى الثابت له في استعمال النص القرآني ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[٥]. وهكذا فان مدلول لفظة السجود في النسق القرآني هو وضع الجبهة على الأرض، ومما يؤكد استعمال النص القرآني لهذا المعنى أيضا أن هذه الحركة لا تتأتى، إلا لمن كان سالما معافى ففي قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾[٦]، أي بمعنى أنهم غير قادرين على وضع جباههم على الأرض، لأن ذلك يتطلب مرونة في الجسم، والكافرون يوم القيامة تصبح ظهورهم طبقا واحدا، وفي هذا إشارة واضحة إلى أن السجود لا يكون

(١) معترك الأقران: ٥٤/٣.
(٢) المصدر السابق: ٥٤/٣.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) سورة التوبة: الآية ١١٢.
(٥) سورة الحج: الآية ٧٧.
(٦) سورة القلم: الآية ٤٢.

إلا بوضع الجبهة على الأرض والقرينة الأخرى قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾(١) وهناك قرينه ثالثة وهي قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾(٢). فترى القرينة التي تدل على أنَّ السجود بوضع الجبهة على الأرض ولذلك تظهر عليها آثار ذلك.

مما تبين يظهر لنا أن لفظة «السُّجُودِ» جاءت في سياق النص القرآني بمعنى وضع الجبهة على الأرض إلا في موضع واحد جاءت بمعنى الركوع والانحناء وذلك في قوله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾(٣)، فجاءت هنا بمعنى الركوع والانحناء: (لان الدخول لا يتأتى مع السجود وقيل متواضعين)(٤).

ومن ذلك أيضا لفظة «السَّكِينَةَ» التي استعملها النص القرآني بمعنى السكون والطمأنينة(٥)، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾(٦)، أي في التابوت السكون والطمأنينة والوقار(٧).

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٨)، وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾(٩) قال أبو السعود: (أي أنزلت رحمته على رسوله وعلى المؤمنين)(١٠).

---

(١) سورة القلم: الآية ٤٣.
(٢) سورة الفتح: الآية ٢٩.
(٣) سورة البقرة: الآية ٥٨.
(٤) معترك الأقران: ١٨٣/٣.
(٥) ينظر: معترك الأقران: ١٨٥/٣.
(٦) سورة البقرة: الآية ٢٤٨.
(٧) تفسير الصابوني: ١٣٣/١.
(٨) سورة الفتح: الآية ٤.
(٩) سورة التوبة: الآية ٢٦.
(١٠) تفسير أبي السعود: ٢٦٣/٢.

وجاءت لفظة «البعل» التي تعني في اللغة الزوج بالمدلول ذاته، وقد اسهم السياق في إيضاح هذه الدلالة ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾(٤)، فترى أن السياق قد أبان أنَّ المقصود من البعل هو الزوج، وهذا مما لا يختلف فيه اثنان، إلا أنّ هذه اللفظة جاءت في موضع من القرآن الكريم لتدل على «الصنم» وذلك في قوله تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾(٥) إذ جاءت «البعل» في هذه الآية جاءت لتدلَّ على عبادتهم لغير الله من الأصنام ولذا جاءت في صيغة الاستفهام الذي يفيد الإنكار والتوبيخ.

ولو تأملنا لفظة «سنة» لوجدناها في معظم آيات القرآن العظيم تدل على المدة الزمنية المعروفة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾(٦)، أي حساب الأوقات عن طريق الشمس وحركة القمر، وقوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾(٧)، وقوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ﴾(٨)، وقوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾(٩)، إلا أن هذا المدلول قد اتخذ منحى مغايرا في آية واحدة من آيات القرآن الكريم وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢٨.

(٢) سورة النساء: الآية ١٢٨.

(٣) سورة هود الآية ٧٢.

(٤) سورة النور: الآية ٣١.

(٥) سورة الصافات: الآية ١٢٥.

(٦) سورة الإسراء: الآية ١٢

(٧) سورة يوسف: الآية ٤٢.

(٨) سورة يوسف: الآية ٤٧.

(٩) سورة الكهف: الآية ٥.

﴿وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾[١] فهنا جاءت بمعنى القحط وقد أبان السياق عن ذلك، في قوله «أَخَذۡنَآ» بمعنى ابتلينا وقوله ﴿وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، مما يدل على أن لفظة «السنة» هنا قد اتخذت بعدا آخرا، وكان ذلك بسبب طبيعة الخطاب القرآني والمفردات التي تألفت معها لفظة «السنة».

ومن الجدير بالذكر في هذا المقام أن لفظ «السنة» يطلق على الأيام الصعبة الشديدة، ولفظ «العام» يطلق على الأيام السهلة، أيام الرخاء والنعيم ولذا فان سيدنا يوسف عندما قال في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ﴾[٢] كان يقصد الأيام الشاقة فضلا عن المعنى الحقيقي للفظ «سنة»، وعندما ذكر أيام الرخاء قال سيدنا يوسف في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾[٣]، فذكر لفظ «العام». ومنه قوله تعالى في قصة سيدنا نوح: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾[٤]، وبذلك يكون سيدنا نوح قد لبث فيهم ألف سنة شقاء إلا خمسين عاما في رخاء[٥].

(١) سورة الأعراف: الآية ١٣٠.

(٢) سورة يوسف: الآية ٤٧.

(٣) سورة يوسف: الآية ٤٩.

(٤) سورة العنكبوت: الآية ١٤.

(٥) ينظر: قراءة جديدة ورؤية في قصص الأنبياء: ١٤٤

وهكذا من يمعن النظر في السياق القرآني يجد كما من الألفاظ ذات الدلالة الثابتة لا مجال لحصرها في هذه الصفحات القلائل ولكننا يمكن ان نشير إلى بعضها من ذلك لفظة «الحج»(١)، و«اليتيم»(٢)، و«الفؤاد»(٣)، و«الصراط»(٤)، و«المساجد»(٥)، و«الشجر»(٦)، و«السمع والبصر»(٧).

(١) ينظر: سورة البقرة: الآيات ١٥٨، ١٨٩، ١٩٦، ١٩٧، سورة آل عمران: الآية ٩٧، سورة التوبة: الآية ٣، سورة الحج: الآية ٢.

(٢) ينظر: سورة البقرة: الآية ٢٢٠، سورة النساء: الآيتان ٦، ١٠، سورة الأنعام : الآية ١٥٢، سورة الكهف: الآية ٨٢، سورة الإسراء: الآية ٣٤، سورة الفجر: الآية ٧، سورة الضحى: الآية ٩.

(٣) ينظر: سورة: الآيات الأنعام ١١٠-١١٣، سورة إبراهيم: الآية ٣٧، سورة هود: الآية ١٢٠، سورة الإسراء: الآية ٣٦، سورة القصص: الآية ١٠، سورة الفرقان: الآية ٣٢، سورة الأحقاف: الآية ٢٦، سورة النبأ: الآية ٢٣.

(٤) ينظر: سورة البقرة: الآية ١٤٢، سورة الأنعام: الآيتان ١٢٦، ١٣٥، سورة النساء: الآية ٦٨، سورة الأعراف: الآية ١٦، سورة طه: الآية ١٣٥، سورة يس: الآية ٦٦، سورة الصافات: الآية ١١٨، سورة ص الآية ٢٢.

(٥) ينظر: سورة البقرة: الآيات ١٤٤، ١٤٩، ١٥٠، ١٩١، ١٩٦، ٢١٧، المائدة: الآية ٢، سورة الأنفال: الآية ٣٤، التوبة: الآية ٦٧، سورة الإسراء: الآيات ١، ٧، ٢٩، ٣١، سورة الحج: الآيتان ٥، ٤٠، سورة الفتح: الآيتان ٢٥، ٢٧.

(٦) ينظر: سورة البقرة: الآية ٣٥، سورة الأعراف الآية ٢٢، سورة الإسراء الآية ٦٠، سورة الحج: الآية ١٨، سورة النحل: الآيتان ١٠، ٦٨، سورة المؤمنون: الآية ٢٠، سورة النور: الآية ٣٥، سورة القصص: الآية ٣٠.

(٧) ينظر: سورة يونس: الآية ٣١، سورة النحل: الآيتان ٧٨، ١٠٨، سورة المؤمنون: الآية ٧٨، سورة السجدة: الآية ٩، سورة الحجر: الآية ١٨، سورة الإسراء: الآية ٣٦، سورة فصلت: الآية ٢٠، سورة الأحقاف: الآية ٢٦.

المبحث الثاني:

ثنائية المعنى

في هذا المبحث سنعمد إلى بيان الألفاظ ذات الدلالتين المتغايرتين من خلال التركيب أو النسق القرآني، وهنا يتضح اثر السياق بشكل جلي، لأن المغايرة في المعنى لا تتأتى من فراغ، إنما يحكمها السياق الذي ترد فيه، إذ إن هذا التنوع الدلالي يعد توليدا يعطي (قيمة دلالية جديدة لبعض الوحدات المعجمية، تسمح بالظهور في سياقات جديدة لم تتحقق فيها من قبل)(١)، بمعنى أن المفردة لا تتحدد دلالتها أو تخرج من دائرة الثبات إلا بالسياق، أضف إلى ذلك التنوع في الخطاب القرآني أسهم هو الآخر في إثراء المفردة القرآنية ومنحها توليدا دلاليا، بدليل اننا لو تأملنا قوله تعالى: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾(٢)، فنرى لفظة «ٱلسَّاعَةُ» التي تعني في اللغة بأنها وحدة قياس الزمن، إلا أن هذا السياق وردت بمعنى يوم القيامة يقول القرطبي: (سميت القيامة بالساعة لسرعة الحساب فيها)(٣)، فالقرائن قد أشارت إلى هذا المدلول، بدليل قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ فاسند المجيء إلى الساعة وهذا استعمال مجازي، لأن الساعة بالمعنى الحقيقي إنما تدل على الوقت المعروف، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾(٤)وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ﴾(٥)، وقوله تعالى: ﴿ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾(٦) وقوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي﴾(٧) وقوله

(١) التوليد الدلالي في البلاغة والمعجم: ٣٥.
(٢) سورة الأنعام: الآية ٣١.
(٣) تفسير القرطبي.
(٤) سورة الأنعام: الآية ٤٠
(٥) سورة النحل: الآية ٧٧.
(٦) سورة الحجر: الآية ٨٥.
(٧) سورة الأعراف: الآية ١٨٧.

تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾[١] ومما تجدر الإشارة إليه أنّه تعالى لما خاطب النبي محمد ﷺ في آية الأعراف قال: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾، وفي الأحزاب قال: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، وفي الأعراف: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ وفي الأحزاب ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ﴾ فاستعاض في الأعراف بالكاف ولعل ذلك يعود إلى كثرة إلحاحهم السؤال عن وقت حدوث الساعة فأجابهم ﴿عِندَ رَبِّى﴾ لما كثر السؤال فأطلق الجواب استخفافا من كثرة سؤالهم فلم يؤكد ذلك فقال ﴿عِندَ رَبِّى﴾ وكأنه لا يريد الإجابة عن سؤالهم ومن ثم فان الاستعاضة بالضمير عنهم استخفافا بهم، فأنت تقول «دعهم» تجدها أكثر تقريعا من قولك «دع الناس»، أما في آية الأحزاب فقد استعمل النص القرآني قال: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ فقد صرح بذكر لفظ الجلالة، لأنَّ فيها تهديدا ووعيدا فعمد إلى الإظهار يقول أبو السعود: (وفيه تهديد للمستعجلين، وتبكيت للممتنعين، والإظهار في موضع الإضمار، للتهويل وزيادة التقرير)[٢].

لكن لفظة «ٱلسَّاعَةِ» جاءت في موضع آخر من القرآن الكريم لتدل على المعنى الحقيقي لها قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾[٤] فهنا تحديد للزمن أيضا، أي اذكر يا محمد يوم يتجمع المشركون للحساب كأنهم ما أقاموا في الدنيا إلا ساعة من النهار، لذا قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ هَٰذَا﴾[٥] ظنا منهم أنهم كانوا نائمين، فسمعوا صيحة الحق فخرجوا ينسلون في حركة سريعة من الفزع هول وكأنهم لبثوا ساعة واحدة.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٦٣.
(٢) تفسير أبي السعود: ٤/٢٢٠.
(٣) سورة النحل: الآية ٦١.
(٤) سورة يونس: الآية ٤٥.
(٥) سورة يس: الآية ٥٢

والأمر نفسه في لفظة «الأجل» التي تعني الوقت الذي ينقطع به الحياة فإذا قيل اجل الحياة واجل الموت، فالمراد به الوقت الذي يحل فيه الدين وتنقطع به الحياة وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾(١).

وفي موضع آخر اتت بمعنى الوقت المعلوم أو المؤجل، من ذلك قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾(٤) وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾(٥)، وقد ورد هذان المعنيان في عدد من الآيات غير قليل في كتاب الله تعالى(٦).

وكذلك لفظة «أولى» إذ لو تأملنا قوله تعالى: ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾(٧)، فقد اختلف المفسرون في تحديد دلالة «أولى» فذهب صاحب التسهيل، أنَّها بمعنى التهديد والدعاء عليهم (٨)، وقال الرازي: (وهو كلام مستأنف محذوف الخبر تقديره: خير لهم، أي أحسن وأمثل، وإنّما جاز الابتداء بالنكرة، لأنها موصوفة ويدلّ عليه قوله

(١) سورة الأعراف: الآية ١٨٥.
(٢) سورة النساء: الآية ٧٧.
(٣) سورة هود: الآية ١٠٤.
(٤) سورة البقرة: الآية ٢٣٥.
(٥) سورة البقرة: الآية ٢٨٢
(٦) ينظر: سورة الأنعام: الآيتان ٢، ٦٠، سورة هود: الآية ٣، سورة إبراهيم: الآية ١٠، سورة النحل: الآية ٦١، سورة طه: الآية ١٢٩، سورة الحج: الآية ٥، ٣٣، سورة العنكبوت: الآية ٥٣، سورة الروم: الآية ٨، سورة الرعد: الآية ٣٨، سورة الأعراف: الآية ١٣٥، سورة الدخان: الآية ٦٣، سورة القصص: الآية ٢٩، سورة فاطر: الآية ٤٥، سورة نوح: الآية ٤.
(٧) سورة محمد: الآيتان ٢٠-٢١.
(٨) التسهيل في علوم التنزيل: ٤٩/٤، ينظر صفوة التفاسير: ٢٠٣/٣.

﴿قول معروف﴾)(١)، فجاءت هذه اللفظة بمعنى «خير لهم»، فجاء قوله ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ ليكون برهانا على أنَّ المقصود ما تم ذكره.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾(٣) وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٤)، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا﴾(٥)، وقوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾(٦).

ولكن هذه الدلالة تختلف تماما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴿٣٣﴾ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾(٧)، فالمتتبع لسياق هذه الآيات يجد معنى ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾ ينطوي على دلالة مغايرة قال المفسرون: (هذه العبارة في لغة العرب ذهبت مذهب المثل في التخويف والتهديد، وأصلها إنَّها أفعل تفضيل من وليه الشيء إذا قاربه ودنا منه، روى أنَّ النبي ﷺ أخذ بيد أبي جهل ثم قال له ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾، فقال أبو جهل أتتوعدني يا محمد وتهددني؟ والله لا تستطيع أنت وربك أن تفعلا بي شيئا، كرره هنا مبالغة في التهديد والوعيد، كأنه يقول: إن اكرر عليك التحذير والتخويف فاحذر)(٨).

(١) التفسير الكبير: ٦٢/٢٨.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٦٨.
(٣) سورة النساء: الآية ١٣٥.
(٤) سورة الأنفال: الآية ٧٥.
(٥) سورة مريم: الآية ٧.
(٦) سورة الأحزاب: الآية ٦.
(٧) سورة القيامة: الآيات ٣٣-٣٥.
(٨) ينظر: التفسير الكبير: ٢٣٣/٣٠، تفسير القرطبي: ١١٣/١٩، صفوة التفاسير: ٤٧٥/٣..

ومنه أيضا لفظة «تُزِغْ » في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[١] فنجد أنَّ «زاغ» في النص القرآني توحي بالميل، إذ أنَّ النسق أوحى بذلك بدليل قوله ﴿تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ لان القلوب هي مصدر التزحزح والثبات وعليه فان المراد بـــ«زاغ» الميل، وجاء قوله ﴿قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ دليلا قاطعا على المعنى المقصود، ولكننا في موضع آخر من القرآن الكريم وجدناها بمعنى آخر وهو «شخصت»: في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾[٢]، فتجد السياق والقرائن أشارت إلى معنى الجديد «شخصت» بدليل قوله تعالى: «الْأَبْصَارُ»، «الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ»؛ لان النسق القرآني جاء ليصف مشهدا من مشاهد يوم القيامة، إذ تجد الأبصار شاخصة لا يرتد إليها طرفها والأفئدة هواء لأنَّ القلوب تحيد عن موضعها، وذلك لبيان هول يوم القيامة، وحالة الفزع الذي يمر بها العبد أثناء حسابه.

ومن ذلك أيضا لفظة «الشهيد» إذ لو تأملنا قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ﴾[٥]، لوجدنا الدلالة واضحة من خلال سياق الآيات المذكورة من أن المقصود بالشهيد –هنا– بمعنى ما يشهد في أمور الدنيا، إلا أنَّ هذا اللفظ اتخذ منحى آخر في موضع آخر من القرآن الكريم إذ جاء بمعنى «الشركاء»[٦]، في قوله تعالى: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن

(١) سورة آل عمران: الآية ٨.
(٢) سورة الأحزاب: الآية ١٠.
(٣) سورة ق: الآية ٣٧.
(٤) سورة البقرة: الآية ٢٨٢.
(٥) سورة النور: الآية ٦.
(٦) ينظر تفسير كلمات القرآن الكريم: ٤.

كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[١]، وورد بمعنى القتل في سبيل الله وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾[٢]وجاءت آيات متعددة تحمل هذه المعاني[٣].

ومنه أيضا لفظة «ثَانِيَ» في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[٤]، أي أحد اثنين لا ثالث لهما هو أبو بكر الصديق ﷺ، والقرين هنا هما الخطاب لاثنين لا ثالث لهما[٥]، وقد اتخذت هذه اللفظة في سياق آخر معنى مغايرا في قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[٦]. فنرى السياق قد ولد دلالة مغايرة للفظة «ثَانِيَ» بدليل قوله «عِطْفِهِۦ» أي معرضا عن الحق لاويا عنقه كفرا وتكبرا، قال ابن عباس: (مستكبرا عن الحق إذا دعي إليه وثنى العطف عبارة عن الكبر والخيلاء فهو كتصعر الخد)[٧].

إذن يمكننا القول بان اللفظة مرهونة بسياقها فهو المحدد لدلالتها بدليل أنَّ لفظة «ريب» وجدناها في سياقين مختلفين وبمعنيين غير متشابهين ففي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٨]، أي: لا شك فيه، ومن لطيف ما يذكر في هذه الآية ما

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٣.
(٢) سورة النساء: الآية ٦٩.
(٣) ينظر: سورة الأنعام: الآية ١٩، سورة يونس: الآية ٤٦، سورة طه: الآية ١١٧، سورة آل عمران: الآية ٩٨، سورة الحج: الآية ١٧، سورة سبأ: الآية ٤٧، سورة فصلت: الآية ٥٣، سورة المجادلة: الآية ٦، سورة ق: الآيات ٣٧-٥١، سورة النساء: الآية ١٣٥، سورة المائدة الآيتان ٨، ٤٤،، سورة الزمر: الآية ٦٩، سورة النور: الآيتان ٤، ١٣.
(٤) سورة التوبة: الآية ٤٠.
(٥) ينظر مختصر تفسير ابن كثير: ١/١٤٧-١٤٨
(٦) سورة الحج: الآية ٩.
(٧) الكشاف: ٣/١٤٤. ينظر مختصر تفسير ابن كثير: ٢/٥٤٣.
(٨) سورة البقرة: الآية ٢.

قاله السيوطي: (فان قلت هلا قدم قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ﴾، كقوله تعالى ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ فلجواب انه إنما قصد نفي الريب عنه، ولو قدم ﴿فِيهِ﴾ لكان إشارة إلى أن ثم كتابا آخر فيه ريب –كما أن ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ إشارة إلى أن خمر الدنيا فيها، وهذا المعنى يبعد قصده)(١).

ومنه قوله تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(٢)، إذ جاءت لفظة «ٱرْتَابُوٓاْ» بمعنى شكوا، وفي سياق آخر جاءت بمعنى حوادث الدهر وذلك في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾(٣) أي (ننتظر به حوادث الدهر وصروفه)(٤)، وقال الخازن: (وريب المنون حوادث الدهر وصروفه فيموت ويهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء)(٥)، أما لو وقفنا على لفظة «مَرِض» في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾(٦)، فنجد انها جاءت بمعنى ما يصيب الإنسان من علّة، ومن بلاغة النص القرآني انه اسند المرض في هذه الآية إلى نفسه ولم يسنده إلى الله تعالى تأدبا في الخطاب وقال النسفي: (لم يقل أمرضني، لأنَّه قصد الذكر بلسان الشكر، فلم يضف إليه ما يقتضي الضير)(٧)، وقد أورد النص القرآني لفظة المرض بهذا المعنى أيضا وهو يعدد العاهات الأخرى التي تصيب الإنسان(٨) وذلك في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾(٩).

---

(١) معترك الأقران: ٢/١٨٥-١٨٦.
(٢) سورة النور: الآية ٥٠.
(٣) سورة الطور: الآية ٣٠.
(٤) ينظر: تفسير النسفي: ٣/٣٨٦ مختصر تفسير ابن كثير: ٣/٤١٢.
(٥) تفسير الخازن: ٤/٢٠١..
(٦) سورة الشعراء: الآية ٨٠.
(٧) تفسير النسفي: ٢/٥٦٨.
(٨) ينظر تفسير النسفي: ٣/٣٣٨، مختصر تفسير ابن كثير: ٣/٣٦٢
(٩) سورة الفتح: الآية ١٧.

إلا أن لفظة «المرض» في موطن آخر من القرآن الكريم جاءت بمعنى النفاق والشك وقال عبد الرحمن بن اسلم: هذا مرض في الدين وليس مرضا في الأجساد، والمرض الشك الذي دخلهم في الإسلام [١] وذلك في قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾[٢]وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾[٣].

ومنه أيضا لفظة: «آنية» في قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾[٤]، نجد أنَّها جاءت بمعنى الإناء وهي الكيسان التي لا عرى لها[٥]، لكنَّها جاءت في سياق آخر بمعنى الحر الشديد وذلك في قوله تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾[٦]، أي قد انتهى حرها وغليانها، وإليه ذهب ابن عباس ومجاهد والحسن والسدي[٧].

ومنه أيضا لفظة «رقود» التي جاءت بمعنى النوم[٨]، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾[٩] بينما جاءت في آية أخرى لتدلَّ على القبور التي يبعث منها الناس يوم القيامة[١٠]، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾[١١] قال ابن كثير: (وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد)[١٢].

(١) ينظر مختصر ابن كثير: ٣٢/١صفوة التفاسير ٣٦/١.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٠.
(٣) سورة الأحزاب: الآية ١٢.
(٤) سورة الإنسان: الآية ١٥.
(٥) ينظر: تفسير النسفي: ٥٧٩/٣، تفسير الخازن: ٣٧٩/٤، تفسير ابن كثير: ٤٥٦/٤.
(٦) سورة الغاشية: الآية ٥.
(٧) ينظر: تفسير النسفي: ٦٣٤/٣، وتفسير الخازن: ٤٢٠/٤، وتفسير ابن كثير: ٥٠٤/٤
(٨) ينظر: تفسير النسفي: ٢٩٠/٢، وتفسير ابن كثير: ٧٤/٣-٧٥.
(٩) سورة الكهف: الآية ١٨.
(١٠) ينظر: تفسير النسفي: ١٠٧/٣، وتفسير ابن كثير: ٥٥٢/٣.
(١١) سورة يس: الآية ٥٢.
(١٢) تفسير ابن كثير: ٥٥٢/٣.

ونجد لفظة «العين» وردت في القرآن بمعنيين:

أولهما: (عين الماء)[١]، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾[٤].

وثانيهما: بمعنى العين المبصرة[٥] وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[٧]، وقد وردت آيات عدة في هذا المعنى[٨].

وقد اختص القرآن الكريم في التمييز بين جمعي هذين المعنيين إذ فرّق القرآن بين استعمال العيون والأعين. فلم يستعمل العيون إلا لعيون الماء وقد وردت «العيون» في عشرة مواطن كلها بمعنى عيون الماء من مثل قوله تعالى: ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾[٩] وقوله تعالى: ﴿فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾[١٠]. في حين جمع العين الباصرة على

---

(١) ينظر تفسير النسفي: ٩٢/١، وتفسير الخازن: ٤٩/١، وتفسير ابن كثير: ٩٦/١.

(٢) سورة البقرة: الآية ٦٠.

(٣) سورة الحجر: الآية ٤٥.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٦٠.

(٥) ينظر : تفسير النسفي: ١٢٩/٢، وتفسير الخازن: ٤٩/٢، ٥٤٩/٢، وتفسير ابن كثير: ٥٩/٢

(٦) سورة المائدة: الآية ٤٥.

(٧) سورة يوسف: الآية ٨٤.

(٨) ينظر: سورة الكهف: الآيتان ٢٨، ٨٦، سورة مريم: الآية ٢٦، سورة القصص: الآية ٩، سورة سبأ: الآية ١٢، سورة يس: الآية ٣٤، سورة القمر: الآية ١٢، سورة الرحمن: الآيتان ٥٠، ٦٦.

(٩) سورة الحجر: الآية ٤٥.

(١٠) المرسلات: الآية ٤١.

أعين[١] مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[٤][٥].

وقد أورد السيوطي في لفظة «الظلم» ثلاثة معان: الكفر والمعاصي وظلم الناس[٦]، ولكننا بعد تفحص آيات القرآن الكريم نجد أن لفظة الظلم تدور في معنيين هما الكفر وظلم النفس أو الناس.

ففي المعنى الأول وهو الكفر[٧]، قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾[٨]، وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾[١١].

وفي المعنى الثاني وهو ظلم النفس أو الناس[١٢]، قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾[١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾[١٤].

---

(١) ينظر دراسات في اللغة لإبراهيم السامرائي: ٩١.
(٢) سورة الكهف: الآية ١٠١.
(٣) سورة الأعراف: الآية ١١٦.
(٤) سورة المائدة: الآية ٨٣.
(٥) ينظر: التعبير القرآني: ١٨
(٦) ينظر معترك الأقران: ٢/٢٢١.
(٧) ينظر تفسير النسفي: ١/٩٢، ١/١٤٢، تفسير الخازن: ١/٤٨، ١/٩١، تفسير ابن كثير: ١/٩٥، ١/١٨٥.
(٨) سورة البقرة: الآية ١٥٠.
(٩) سورة البقرة: الآية ٥٩.
(١٠) سورة الأنعام: الآية ٢١.
(١١) سورة الأنعام: الآية ٣٣.
(١٢) ينظر: تفسير النسفي: ١/١٩٢، تفسير الخازن: ١/١٦٤، تفسير ابن كثير: ١/٢٦٦.
(١٣) سورة الفرقان: الآية ٤.
(١٤) سورة البقرة: الآية ٢٣١.

المبحث الثالث:

تعدد المعنى

من يمعن النظر في النسق القرآني يجد الإعجاز البلاغي واللغوي واضحا جليا، إذ تتجلي المفردة بأطر مختلفة من سياق إلى آخر، وذلك بحسب الخطاب الموجه من البارئ عز وجل والمعنى المراد إبرازه، فلو تأملنا قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٍ﴾(١).

من يتأمل هذا السياق القرآني يجد جمالية التشبيه إذ شبه أعمال الكفار التي عملوها في الدنيا في ذهابها وعدم استقرارها برماد اشتد به الريح في يوم عاصف فانتشر ولم تجد له أثرا، فنجد لفظة «ٱلرِّيحُ» قد أسهمت في ترسيخ المعنى، والمراد بها الهواء الذي يعصف بالذي يجده أمامه وكذلك بقوله ﴿فِي يَوۡمٍ عَاصِفٍ﴾ ونجد هذه المفردة قد عزز السياق دلالتها، ونظير ذلك قوله ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ﴾(٢) فالريح كما يوحي السياق هي من عوامل الجو، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾(٣).

هذا يشير إلى التنوع الدلالي للمفردة القرآنية وامتلاكها القيمة التعبيرية التي منحها السياق ذلك – وتعد هذه السمة خصيصة من خصائص اللغة العربية.

ففي الآية السابقة التفات جميل من المخاطب: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ إلى الغيبة ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ أي جرين بكم بريحين الطيبة التي تسير السفن وأخرى جاءت على حين غرة وهي الريح العاصفة.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ١٨.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٨١.

(٣) سورة يونس: الآية ٢٢.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾(١) هذه هي الريح الدبور، وقد قال العرب: «تنعمنا بالصبا وأهلكت عاد بالدبور».

أما قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾(٢)، فنرى السياق قد أوحى بمعنى مغاير للريح السابقة، إنما المراد هنا ما يشم من روائح.

في حين وجدنا معنى مغايرا للمعنيين السابقين تمثل بالقوة والبأس من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(٣)، ولعل السياق هو الذي أوحى بذلك بدليل انه قال «وَلَا تَنَٰزَعُواْ» أي لا تختلفوا فالاختلاف بين الأقوام مدعاة للوهن والخور(٤).

وليس مستغربا على القرآن الكريم أن تجد هذا التناسق البياني في مفرداته واثر السياق في الكشف عن الدلالة المعنوية المطلوبة، تأمل قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾(٥)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾(٦).

فنلاحظ أن النص القرآني قدم الشفاعة في الآية الأولى وآخر العدل والعكس من ذلك في الآية الثانية، والجديد أن السياق قد منح لفظة «العدل» بعدا آخر غير المألوف أو المتعارف عليه في اللفظ أي بمعنى من اللفظ أي بمعنى «الفدية»(٧)،

---

(١) سورة الحاقة: الآية ٦.
(٢) سورة يوسف: الآية ٩٤.
(٣) سورة الأنفال: الآية ٤٦.
(٤) ينظر سورة الحج: الآية ٣١، سورة الإسراء: الآية ٦٩، سورة الروم: الآية ٥١، سورة الأحزاب: الآية ٩، سورة البقرة: الآية ١٥، سورة الذاريات: الآية ٤١، سورة الشورى: الآية ٣٣، سورة ص: الآية ٣٦، سورة سبأ: الآية ١٢.
(٥) سورة البقرة: الآية ٤٨.
(٦) سورة البقرة: الآية ١٢٣.
(٧) ينظر: تفسير النسفي: ٨٧/١، و تفسير ابن كثير: ٨٥/١.

ويقول الكرماني: (وإنما قدّم الشفاعة قَطْعا لطمع من زعم أنَّ آباءهم يشفعوا لهم، وأنّ الأصنام شفعاؤهم عند الله وآخرها في الآية الأخرى، لأنّ التقدير في الآيتين معا: لا يقبل منها شفاعة فتنفعها تلك الشفاعة، لأنّ النفع بعد القبول، وقدم العدل في الآية ليكون لفظ القبول مقدما معا)[١].

إذن التقديم والتأخير جاء لغرض التخصيص، لأن العرب تدافع عن العزيز فإذا لم يتسن لهم ذلك عادوا بوجوه الضراعة، فإذا عجزوا عرضوا الفداء بالمال أو غيره[٢].

ونظير ذلك قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾[٣]. يقول قتادة: (لو جاء بملء الأرض ذهبا لا يقبل منه)[٤]، أي إنّ العدل هنا بمعنى الفدية[٥].

وفي سياق آخر نلمح معنى المساواة بين الله تعالى وغيره، من ذلك قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾[٦]، جاء هنا بصيغة الاستفهام الإنكاري ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ وقوله «يَعْدِلُونَ» أن يسووا بين الله تعالى وما يعبدونه -أي جعلوا له عديلا وقبيلا-[٧]، إلا أنَّ هذه اللفظة جاءت بمعناها المعتاد وهو العدل والإنصاف[٨]، في قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

(١) البرهان في توجيه متشابه القرآن: ٢٧-٢٨.
(٢) درة التنزيل: ١٢.
(٣) سورة الأنعام: الآية ٧٠.
(٤) تفسير الطبري: ٤٤٧/١١.
(٥) ينظر: تفسير النسفي: ٥١٣/١، وتفسير ابن كثير: ١٣٧/٢.
(٦) سورة النمل: الآية ٦٠.
(٧) ينظر: تفسير النسفي: ٦١٥/٢، و تفسير ابن كثير: ٣٥٧/٣.
(٨) ينظر: تفسير النسفي: ٢٢٧/١، ٤٧٦/١، و تفسير ابن كثير: ٣١٦/١، ٩٤/٢.

ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾[٢].

هذا التوزيع لمفردات السياق القرآني يوحي بمرونة لغة القرآن وقدرته على المحاججة والإقناع وإيصال المعنى بأيسر السبل وأوضحها، فتأمل قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[٣].

فنرى السياق قد أفرد الحديث عن الأنعام من دابّة تدبّ على الأرض أو ما له جناحان، إذ أنَّ لفظة «طَٰٓئِرٍ» ما له جناحان وقد وردت هذه اللفظة بمدلولها في سياقات مختلفة من القرآن[٤]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[٥].

إلا أنَّ هذه اللفظة جاءت في موضع آخر لتدلَّ على الحظ والنصيب وذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٦]، هذا النص يشير إلى شدة تطيرهم من موسى –عليه السلام– متناسين قدرة الله وحكمته، لذا جاء السياق ليبيِّن ذلك، بصيغة القصر بــ «إلا». أي أنَّ ما حلَّ بهم إنما هو حظّهم ونصيبهم الذي قدر لهم.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٩٥.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨٢.
(٣) سورة الأنعام: الآية ٣٨.
(٤) ينظر: سورة يوسف: الآية ٣٦، سورة النحل: الآية ٧٩، سورة النور: ٤١، سورة النمل: الآية ١٧، سور سبأ: الآية ١٠، سورة ص: الآية ١٩.
(٥) سورة الأنبياء: الآية ١٩.
(٦) سورة الأعراف: الآية ١٣١.

أما قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾(١)، فنجد أنّ السياق مختلف في إلزامه للعنق، وما يلزم العنق لا ينفك عنه فهنا المراد بالطائر العمل، فكل إنسان مرهون بعمله، وعمله ملازم له لزوم القلادة للعنق(٢).

وتأتي لفظة «الزكاة» التي تعني إنفاق المال بصفة مخصوصة وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾(٤)، إلا أن هذه اللفظة أخذت منحى آخر في السياق القرآني ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾(٥) فنرى الفعل «أَفْلَحَ» المسبوق بقد يشير إلى توكيد الفلاح فمن طهر نفسه من الهوى ونقاها عن الشرور هو الفائز إذ جاءت لفظة «الزكاة» بمعنى الطهر ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾(٦)، وقوله تعالى: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾(٧)، وقوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾(٨)، أي نفسا طاهرة لم ترتكب جرما تقتل به.

أما قوله تعالى: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾(٩)، فهنا نجد أن اللفظة قد أخذت منحى مغايرا وهو «الأطيب».

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١٣.

(٢) ينظر تفسير النسفي: ٢/٢٤٩.

(٣) سورة المؤمنون: الآية ٤٥.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٧٣.

(٥) سورة الشمس: الآية ٩.

(٦) سورة مريم: الآية ١٣.

(٧) سورة الكهف: الآية ٨١.

(٨) سورة الكهف : الآية ٧٤.

(٩) سورة الكهف: الآية ١٩.

هذه الكيفية التوزيعية تأتت من طواعية المفردة العربية وحيويتها، وجمال نظامها إذ إن مفردات السياق تعطي دلالة مختلفة بحسب النسق الذي انتظمت منه، فلو تأملت قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾(١) نجد أن لفظة «اللسان» المتعارف عليها لا نجدها بمعناها أو مدلولها في هذا النسق القرآني فقوله ﴿وَٱجۡعَل لِّي﴾ واقتران لفظة «اللسان» بلفظة «الصدق» لتكون بمعنى «الذكر الحسن» و«والثناء الحسن»(٢)، إلا أنا وجدناها في موضع آخر بمعنى مغاير هو «الفصاحة»(٣) أو «اللغة»(٤)وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا﴾(٥) وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾(٦).

وجاء لفظ «اللسان» بالمعنى المألوف وهي الجارحة(٧) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾(٨) وقوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَ وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ﴾(٩). وجاء هذا في آيات متعددة من القرآن الكريم (١٠).

وقد أدّى هذا التنوع الدلالي في القرآن الكريم إلى دحض النظرية القائلة بثنائية اللغة بين الحقيقة والمجاز كما حدد ذلك الراغب الأصفهاني في مفرداته، والزمخشري في أساس البلاغة إلا أنَّ السيوطي خطى خطوة مباركة في هذا

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٨٤.

(٢) ينظر: تفسير النسفي: ٥٦٩/٢، وتفسير ابن كثير: ٣٢٧/٣.

(٣) ينظر: تفسير النسفي: ٦٤٢/٢، وتفسير ابن كثير: ٣٧٥/٣، ١٤٩/٤.

(٤) ينظر: تفسير ابن كثير: ١٤٩/٤.، وفتح القدير: ٧٢٣/٤.

(٥) سورة القصص: الآية ٣٤.

(٦) سورة الدخان: الآية ٥٨.

(٧) ينظر: تفسير النسفي: ٥٧٢/٣، وتفسير ابن كثير: ٤٤٩/٤-٤٥٠، وفتح القدير: ٤٢٠/٥.

(٨) سورة القيامة: الآية ١٦.

(٩) سورة النحل: الآية ٦٢

(١٠) ينظر سورة طه: الآية ٢٧، سورة النساء: الآية ٤٦، سورة النمل: الآية ١٦، سورة الشعراء: الآية ١٩٥، سورة الأحزاب: الآية ١٩.

المضمار فتراه يعمد في بعض الأحيان إلى ذكر التراكم الدلالي للمفردة وفي أحيان أخرى يسعى إلى تفسير المفردة القرآنية من الناحية اللغوية.

ولو تأملنا قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[١]. فجاءت هنا «يد» لتشير إلى البخل في حال كونها مغلولة والى الكرم والجود في حال كونها مبسوطة[٢].

بينما جاءت في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[٣]، كما قال الزمخشري: (إما أن يراد به يد المعطي أو الآخذ فمعناه على أرادة يد المعطي حتى يعطوها عن يد طواعية غير ممتنعة... وإما على أرادة يد لآخذ فمعناها حتى يعطوها عن يد قاهرة مستولية)[٤]، يقول الصابوني: (حتى يدفعوا إليكم الجزية منقادين مستسلمين إذ جاء ختام الآية ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ ليناسب مع حال دفعهم الجزية للمسلمين)[٥].

واستعمل النص القرآني «اليد» بمعنى «الجارحة»[٦]، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٧].

هذا الاختلاف الدلالي إنّما أحدثته طبيعة الخطاب من السياق أو النظم القرآني، وقابلية المفردة القرآنية على أن تستعمل بوجوه مختلفة، والشواهد كثيرة إلا أننا عمدنا في هذا البحث إلى انتقاء بعض المفردات لتكون دليلا على هذا النوع الدلالي.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٦٤.
(٢) ينظر: تفسير النسفي: ٤٥٩/١، وتفسير الخازن: ٥٩-٦٠، وتفسير ابن كثير: ٧٢/١.
(٣) سورة التوبة: الآية ٢٩.
(٤) الكشاف: ٢٦٢/٢.
(٥) صفوة التفاسير: ٤٤٥/١
(٦) ينظر: تفسير النسفي: ٤٤٥/١، وتفسير الخازن: ٤٠/٢، وتفسير ابن كثير: ٥١/٢-٥٢.
(٧) سورة المائدة: الآية ٣٨.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾[1] نجد أن النفس –ههنا– بمعنى عقوبته سبحانه[2]، على الرغم من أن النفس كما عرفها السهيلي بأنها: (عبارة عن حقيقة الوجود، وقد استعمل من لفظها النفاسة والشيء النفيس، فصلحت للتعبير عنه سبحانه)[3].

وجاءت «النفس» في القرآن الكريم لتدل على الغيب على سبيل المشاكلة[4]، قال تعالى: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَ﴾[5]، فقد أولها العلماء بتأويلات منها النفس عبر بها عن الذات وتداولها بعضهم بالغيب أي: لا أعلم ما في غيبك وسرك[6].

وجاءت النفس بمعنى الذات الإنسانية وعلى ثلاثة أنواع:

<u>الأولى: النفس الأمّارة</u>[7]: كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[8].

<u>الثانية: النفس المطمئنة</u>: كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾[9].

<u>الثالثة: النفس اللوّامة</u>: كقوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[10].

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٢٨.
(٢) ينظر: تفسير النسفي: ٢٤٨/١، وتفسير الخازن ٢٣٧/١. وتفسير ابن كثير: ٣٣٧/١.
(٣) معترك الأقران: ١١٣/١.
(٤) تفسير النسفي: ٤٨٧/١، وتفسير الخازن: ٩٤/٢.
(٥) سورة المائدة: الآية ١١٦.
(٦) معترك الأقران: ١١٣/١.
(٧) ينظر: تفسير النسفي: ١١٧/٢.
(٨) سورة يوسف: الآية ٥٣.
(٩) سورة الفجر: الآية ٢٧.
(١٠) سورة القيامة: الآية ١-٢.

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(١). وقوله تعالى: ﴿فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾(٣)، إذ جاءت في الآيات الثلاث بدلالة واحدة بمعنى الثواب وقد أسهم السياق في تحديد معناها.

أمّا في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾(٤)، وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرًا ٧٧﴾(٥). فقد جاءت بمعنى «مالا»، أمّا في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾(٦)، فقد جاءت بمعنى المهر.

ولو لاحظنا لفظة «إمام» التي تعني في المصطلح اللغوي: ما ائتم به من رئيس وغيره (٧)، إلا أنها اتخذت في السياق القرآني معان عدة منها بمعنى الكتاب وذلك في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡ﴾(٨)يقول الصابوني: (والإمام الكتاب الذي سجل فيه عمل الإنسان ويقويه ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾(٩) قال ابن عباس: الإمام ما عمل وأملي فكتب عليه، فمن بعث متقيا لله جعل كتابه بيمينه فقرأه واستبشر)(١٠)، ورجح ذلك ابن كثير في تفسيره وذكر أن ذلك هو رأي أبي عالية والحسن والضحاك(١١).

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٧١.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٧٩.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٣٦.

(٤) سورة الأنعام: الآية ٩٠.

(٥) سورة الكهف: الآية ٧٧.

(٦) سورة المائدة: الآية ٥.

(٧) القاموس المحيط: ١٠٨٩.

(٨) سورة الإسراء: الآية ٧١.

(٩) سورة يس: الآية ١٢.

(١٠) صفوة التفاسير: ١٦٤/٢. ينظر تفسير الطبري: ١٢٦/١٥.

(١١) تفسير ابن كثير: ٥٢/٣.

وتأتي بمعنى الطريق الواضح وذلك في قوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ﴾[١]وقال ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيره طريق ظاهر[٢].

وتأتي بمعناها المألوف المتداول اللغوي وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[٣] وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗا﴾[٤].

ومن ذلك لفظة «الدين» فقد جاءت بمعناها الحقيقي وهو الإسلام[٥] وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾[٦].

وجاءت بمعنى الجزاء والحساب[٧]، وذلك في قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾[٨].
وجاءت بمعنى «حكم الله» وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ﴾[٩].

(١) سورة الحجر: الآية ٧٩.
(٢) ينظر تفسير ابن كثير: ٥٣٦/٢.
(٣) سورة الفرقان: الآية ٧٤.
(٤) سورة البقرة: الآية ١٢٤.
(٥) ينظر تفسير ابن كثير: ٣٣٤/١.
(٦) سورة آل عمران: الآية ١٩.
(٧) ينظر تفسير ابن كثير: ٢٤/١.
(٨) سورة الفاتحة: الآية ٤.
(٩) سورة النور: الآية ٢.

وهذه هي سمة المفردة القرآنية، وما ذكر في هذا البحث يعد محاولة لتجاوز ما ذكره السابقون وقد أشار السيوطي في معتركه إلى ألفاظ عدة لها معان عدة منها «فرض»[١]، و«القنوت»[٢]، و«العهد»[٣]، و«مولى»[٤]، و«الروح»[٥]، وغير ذلك.

وبعد فان ما سقناه من دلالة الألفاظ في النصوص القرآنية في هذا البحث هو محاولة متواضعة منا لاطلاع القارئ الكريم على عظمة ما في القرآن من الألفاظ ودقة القرآن الكريم في استعمال لغته وتراكيبه، ولم يكن استقصاء شاملا لمفردات اللغة العربية التي وردت في الكتاب العزيز وما ذكر فإنما هو غيض من فيض وإنما سعينا إلى إبراز أثر السياق في تحديد دلالة المفردة القرآنية عن طريق التقصي الدقيق لها في آيات القرآن الكريم، ولا ندعي الجدة في هذا الموضوع، ولكنّنا توّاقين إلى الغوص في أسرار بلاغة القرآن الكريم التي أحار العلماء نظمه هذا النظم المحكم لا يتأتى لشاعر أو ناثر وإنما القدرة الإلهية جعلت منه معجزة خالدة على مر السنين والأعوام، معجزة عجز العرب على أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، إذ سعينا جاهدين على إضفاء بعض اللمسات البيانية على نصه من خلال ما ذكره المفسرون من معان جميلة سواء أكانت في الآيات المغايرة أو المتشابهة. ولعل هذا التنوع في المفردة القرآنية ناجم من شفافيتها وحروفها في اكتساب دلالة مغأيرة بحسب السياق الذي تنضوي تحته.

---

(١) ينظر معترك الأقران: ٣/١٣٣.

(٢) المصدر نفسه: ٣/١٣٥.

(٣) المصدر نفسه: ٢/٥٨٩

(٤) المصدر نفسه: ٢/٤٣٢-٤٣٣

(٥) المصدر نفسه: ٢/٢٠١.

الخاتمة

بعد هذه الجولة المباركة في تتبع دلالات المفردة القرآنية، انتهى البحث إلى نتائج طيبة

تتلخص فيما يأتي:

١- يمتاز النص القرآني بوجود كمّا هائلا من المفردات التي تتسم بثبات المعنى، ملتزمة بسياقات ذات دلالات محددة سواء أكانت في الصفات الإلهية أم في أركان الإسلام أم غيرهما.

٢- يمتاز النص القرآني بوجود مفردات ثنائية المعنى ذات دلالتين متغايرتين، ما يجعل أثر السياق يبرز بشكل جلي في تحديد المعنى المراد، وهذه المغايرة لا تتأتى من فراغ وإنما يحكمها السياق الذي ترد فيه مما يعد بدوره توليد يعطي قيمة دلالية لبعض الوحدات المعجمية تسمح بظهورها في سياقات جديدة.

٣- يمتاز النص القرآني بوجود مفردات تتجلى بأطر مختلفة من سياق إلى آخر بحسب الخطاب الموجه من الباري عز وجل والمعنى المراد إبرازه، فهي متعددة المعنى بحسب ما يقتضيه سياق النص القرآني مما يعطي للمعنى دلالة أدق في التعبير ورسم الصورة المراد توصيلها إلى السامع.

٤- أدى هذا التنوع الدلالي في القرآن الكريم إلى دحض النظرية القائلة بثنائية اللغة بين الحقيقة والمجاز كما حدد ذلك الراغب الأصفهاني في مفرداته، والزمخشري في أساس البلاغة إلا أن السيوطي خطى خطوة مباركة في هذا المضمار فتراه يعمد في بعض الأحيان إلى ذكر التراكم الدلالي للمفردة وفي أحيان أخرى يسعى إلى تفسير المفردة القرآنية من الناحية اللغوية.

٥- يوحي هذا التوزيع لمفردات النص القرآن بمرونة لغة القرآن وقدرته على المحاجة والإقناع وإيصال المعنى بأيسر السبل وأوضحها.

٦- يعطي هذا التنوع في استعمال المفردات بين الثبات والتعدد إلى مقدرة النص القرآني على استعمال المفردة الملائمة وسهولة التعاطي مع المفردات من حيث دلالاتها لتأدية المعنى المراد بلغة سهلة يفهمها العالم والمتعلم.

المصادر والمراجع

١- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لقاضي القضاة أبي السعود محمد بن محمد العمادي (ت٩٥١هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د. ت).
٢- الإتقان في علوم القرآن، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة التراث القاهرة، مصر.
٣- البحر المحيط، لأبي حيان أثير الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، دراسة وتحقيق وتعليق الشيخ عادل احمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد عوض، طبعة جديدة مراجعة ومحققة، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
٤- البرهان في توجيه متشابه القرآن، تأليف تاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرماني (ت٥٠٥هـ)، تحقيق عبد القادر عطا، ط/١، دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.
٥- التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن احمد المعروف بابن الجزيّ الكلبي الغرناطي (ت٧٤١هـ) مطبعة البابي الحلبي، القاهرة ١٣٥٥هـ.
٦- التعبير القرآني، تأليف الدكتور فاضل صالح السامرائي جامعة بغداد، بيت الحكمة، ١٩٨٦-١٩٨٧م.
٧- تفسير الخازن، المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل، تأليف علاء الدين علي بن محمد البغدادي الشهير بالخازن (٧٢٥هـ)، ضبطه وصححه عبد السلام محمد علي شاهين، ط١، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
٨- تفسير الطبري، المسمى جامع البيان في تفسير القرآن، للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠ هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.

٩- تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير عماد الدين أبي فداء إسماعيل بن كثير البغدادي القريشي (ت٧٧٤هـ)، دار الأندلس ببيروت.
١٠-التفسير الكبير، فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ)، الطبعة البهية المصرية بميدان الجامع الأزهر بمصر، د. ت.
١١-تفسير النسفي، المسمى، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، أبي البركات عبد الله بن احمد بن محمود النسفي (ت٧١٠ هـ) حققه وخرج أحاديثه، يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له محيي الدين ديب متو، ط٢، دار ابن كثير، دمشق، بيروت ١٤٢٠هـ-١٩٩٩ م.
١٢-تفسير كلمات القرآن العظيم، لفضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف تشرف ديوان الوقف السني في جمهورية العراق بطباعته، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
١٣-التوليد الدلالي في البلاغة والمعجم، محمد غاليم، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٨٧.
١٤-الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن احمد الأنصاري القرطبي (ت٦٧١هـ)، تحقيق أبو إسحاق إبراهيم المغيش، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٦م.
١٥-دراسات في اللغة، الدكتور إبراهيم السامرائي، بغداد ١٩٦٠.
١٦-دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) تصحيح محمد رشيد رضا، شركة الطباعة الفنية المتحدة، مصر، ١٩٦١م.
١٧-صفوة التفاسير تفسير القرآن العظيم، تأليف محمد الصابوني، دار الصابوني، ط٩، (د. ت).
١٨-فتح القدير الجامع بين فنيّ الرواية والدراية في علم التفسير، تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني (١٢٥٠هـ)، إعداد خالد عبد الفتاح شبل، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.
١٩-قراءة جديدة ورؤية في قصص الأنبياء، عمرو خالد، دار المعرفة، بيروت -لبنان ط٤، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

٢٠-الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تأليف أبي القاسم الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت لبنان (د. ت).
٢١-لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصري، (٧١١هـ) مصور على طبعة بولاق.
٢٢-المجاز في البلاغة العربية، تأليف الدكتور مهدي صالح السامرائي، ط١، دار الدعوة، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.
٢٣-مختصر تفسير القرآن العظيم، المسمى عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، ط٣، اختصار وتحقيق احمد محمد شاكر، دار الوفاء، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م.
٢٤-معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي: ١٣٩٢هـ-١٩٧٣م.
٢٥-مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن بكر السكاكي (ت٦٢٦هـ)، ط١، مكتبة مصطفى بابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٣٥٦هـ-١٩٣٧م.